كتب جديدة

معلّقة توفيق صايغ

بقلم توفيق صايغ . المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٣

الكتاب – الحياة ما خطه قلم بعد رغم انه ، منذ البداية ، اشغولة الادباء والشعراء جميعا . فعبثا نفتش عن توفيق صايغ ، بكليته ، في كتابه هذا ، اللهم الا اذا اكتفينا من المأساة بفصل واحد ، زاعمين ان الكل في الجزء ، مستسلمين للحل الاسهل . معاذة وجه الله !

هذه النقطة الاولى ، الاساسية ، نقطة قصر الشاعر على بعض شعره ، اردنا جلاءها وتنحيتها ، مخافة التضليل ، قبل الشروع بحفنة من التعليقات على هامش « معلقة توفيق صايغ » . ذلك بان كلمة « معلقة » قد يكون من شأنها ادخال القارىء مداخل الغواية ، فيظن ان زبدة صاحبها فيها كما هي الحال في المعلقات السبع او التسع .

نقطة ثانية ننبه اليها ونحن في الاستهلال : لكي يرتفع الحديث في الشعر الى مستوى موضوعه وجب ان يكون شعرا . شأنه شأن السمفونية ، تشرح باعادة عزفها . لذلك لن تكون هذه المراجعة شرحا او عرضا او تحليلا ، بل ستكون ، كما قلنا ، تعليقات هامشية كالنمنمات او التزويقات في مخطوط قديم .

نقطة ثالثة : الشعر ، في علاياته ، جهد واجهاد يفضيان بالشاعر وبنا الى الرحرحان على القمم بعد عرق التصعيد . فما ابعدنا هنا ، وفي كل شعر اصيل ، عن السهولة التي تدغدغ البشرة كالثوب المعار ، عن التنفس الذي لا يلهث ، عن القوالب البراقة التي قلبها من كرتون ! كأنما الشعر ليس فلسفة في الحياة ، فلسفة الحياة ، على نمط مقصور عليه محصور فيه ، هو نمط الوجدانية لا العقلانية !

وبعد ، فما « معلقة توفيق صايغ » ؟ حلقة ثالثة في سلسلة نتمنى ان تطول ، بعد الحلقة الاولى « ثلاثون قصيدة » والحلقة الثانية « القصيدة » ؟ انها اكثر . ولرب قارىء سيرى فيها حبة العقد او غلق القبة يوم يكتمل له ما لا يزال في المحتمل ، ويوم يعرف ان صاحبها ، اذا لم يكن من اسهل الشعراء ، فانه من اكثرهم طبعية . ولطالما تخدع الظهارة ! ثم ان هذه « المعلقة » تؤلف بين لونين من الشعر : اللون الملحمي (تتحرك ، وتندفع الى امام ، عارية في حركتها كأنها في زمن ابدي ، وكأنها منذ البداية ما ستكونه في النهاية) ، واللون الفجوعي (تتأزم الحلول ، داميـة ، في صراع الجسد والروح ، في السقطة والفداء ، في الفذوذية والجماهيرية) . وهي ، الى ذلك ، او لاجل ذلك ، ميتافيزيقية اللحمة والاتجاه ، مسيحية في فجوعها كأن مسرحها بستان الزيتون ، وفي ما يعصف بها من محبة وراء الحب .

لنبدأ بالتزويقات على الهامش ، مقطعا مقطعا ، تحت قرن « الكركدن » عنوان القصيدة الاولى :

– سنة الله في خلقه ان ذكراً وانثى خلقهما : « وكل حيوان ... زوجان » . مشهد ناتىء كالنقوش النافرة ، وناطق كالشخوص على المنصة .

فما ابعدنا في الشعر عن التجريد الجامد في الفلسفة. هنا جدلية حية ، جدلية الضدين اللذين يموتان في اجتماعهما (او مجامعتهما) سعياً وراء ايلاد قضية لا تعتم ان تبحث عن نقيضها فتموتان معاً، وهكذا الى ما يشاء الله . وحده الاله لايبحث عن ضده ، لذلك كان فريداً ، ولذلك كان اسطورياً ، يقول بعضهم. فالجنس فينا اساس . وحده الاله وجد من به يتكامل،لامن به يفنى.وجد «المتعذرة الوجود»، العذراءالأم.اما الانسان فينقلب حيواناًاذا شاء ان يصير ملا كا ، يقول باسكال . والذي يتبع سنة الخالق في خلقه هو « مكتمل مكتف » . بحثك كانسان عن « المتعذرة الوجود » تعذير هو .

– السعي هو المهم كما في الملاحم ، كما في المأساة الاغريقية ، رغم ان كل شيء مقرر منذ البدء . النتيجة ثانوية اذاً . وما دمنا نسعى فنحن شبيهون بالله ، اذ ان الراحة في غيره موت . على ان التشبيه بالله يجعل وجودنا خيالياً ، وهمياً ، اسطورياً . وجودنا ام ميولنا ؟ الميول هي الماهية، وهي تابعة للوجود في الزمن ، سابقة له في القيمة . « والسعي أحد : فكيف تختلف النتائج ؟ » : تختلف لأن السعي نحو تحقيق الماهية هو في بدء من الوجود ، فاذا اختلف الوجود واتفق السعي كانت النتيجة مختلفة .

– العذرة فكرة لم يكن لها ان تتجسد فعلا وتستمر فوق ازاحة الجسد الا في امرأة واحدة هي « العذراء » . وكلما حاول تجسيدها وحيد قرن انقلب ذا قرنين ، اي اصبح بشراً سويا ينسلك في قطيع الجماهير . ذلك بأنها جنس ، لا اكثر ولا اقل . وهي كفر بوجه السماء لان من انزلق مرة انزلق الف مرة فكان العهر في التكرار . وكانت تجارة اللحم : « يفتحن سيقانهن كافرات بوجه السماء » .

– الهرب من الانثى هرب اليها ، كأنما نقطة الانطلاق هي نقطة الختام ، وكأنما طرفا السعي يلتقيان لا محالة . الا اننا نغمض العينين ونصم الاذنين عما يعترضنا من تشويقات واغراءات ، ونحث السير ثملين به اكثر منا بالهدف الذي نطارده. فاغماض العينين وصم الاذنين يجعلاننا اكثر اغراء. والمتعذر المنال هو الذي نهفو الى منالة . من هنا حبنا للاسطورة ، ومن هنا كانت النساء يفتحن حصونهن الخائنة لهذا الراكض الذي لا يبالي ، وكان هو يسرع اكثر فأكثر شطر التي لا تفتح الحصون .

– الاغراء في الامتلاك هو اغراء في الاهلاك. يطاردك الكون لانك نسيج وحدك ، وتطارد حبيبتك الذهنية لانك تصورتها نسيج وحدها ايضاً. وكلا الطرادين في سبيل الموت . فالناس يشفقون من التفرد : من تفرد قتلوه ولو ذهنياً ، حكموا عليه بالاسطورية . انهم ، منذ ان كانوا ، قطيع . سنة الحياة سنة الغاب (لا فرق بين الوحوش والقانصين) . كلنا الى الموت ، اي الى الانصياع للسنة العامة .

– تاريخ الانسان تكرار لنفسه ، عود على بدء . ما نظنه عمودياً انما هو افقي : « حياتك وتيرة واحدة » . وكل شيء مكتوب ، اي منذ الازل قررته العناية . فسعينا الى تحقيق ماهيتنا واجب علينا ، الا انه في الواقع عمل هراء . وما من حب مجرد .ما من حب بشري في سبيل العبادة وحدها . كلنا انانيون ، الا ان في الانانية استمراراً للحياة . اعني للوجود لا للماهية . من هنا العودة الى حضن الام ، فحضنها اقرب الى الرحم ، الى البداية . على ان الام كسائر النساء ، كالناس جميعاً : تحبك لا لك بل لها ، لانانيتها ، وبذلك استمرار النوع .

– ما من عذراء اشد عذرة من الام . واذاً فأول الطريق آخرها ، كقوله : ما كنت تفتش عني لو لم تكن قد وجدتني . فسنة السعي في الحياة دورية هي . وماذا وجدت في عذرائك الام ؟ وجدت فيها كل ما كان بامكانك ان تجده في الحقيقة لا في الوهم ، في التجسيد لا في الفكرة المجردة . لم تجد اشعالا ولا بللا ، بل صرت الى ما صدرت عنه . اما هي ، الواقعية ، فقد عرفت

ما تلاقيه فيك : اللذة التي خبرتها مع الرجال محاطة بهالة اخرى ،هالة الاسطورية . يزيد في وقع الشيء لا ما نعرفه منه بل ما نجهله ، وخصوصاً في الحب : انه نفسه جسدياً ؛ على ان ما نتخيله من عالم ذلك المجهول الذي سيواطئنا عليه هو الذي يذكي النار فينا .

– « المقبلات طيبة ،لا تشبع » كذلك حال الحب العذري الذي نتوهم الشبع فيه ، اما الواقع فبخلاف ذلك . ومن شاء ان يكون فوق الواقع كان دونه ، كان مبتدئاً في مختبر الحياة . فالام تعرف ذلك لكونها اماً . انها « حاذقة » . هي تعرف ان لا راحة للحب ، بشرياً ، الا في الدم . فالحب نزوة الروح المتجسدة ، لا نزوة الروح المجردة . وليس عرساً اقتران امرأة بروح رجل . الرجل الروحاني اسطوري هو ، لا وجود له الا في الوهم ؛ والوهم لاينفع غلة المرأة الا اذا استمر وهماً . كأنما الرجل اقرب الى الروح ، والمرأة الى الجسد . فالروح المتجسدة هي الانسان ، والرجل المتزوج – المتجسد في امرأة – هو الذي يخلق الحياة . يخلقها بموته ، اي بتصاغره ،كما تخلق الروح الانسان بتجسدها ، اي بالحط من قيمتها في اتحادها بجسد .

– انت البريء تجهل ان اجتماع جسدين هو كاجتماع اناءين من فخار : ينكسران . امك تعرف ذلك : « فاحتضنت الجسد الذي خالته لن يعرف ارتخاء » . الا انك امتنعت ، ارتخيت ، فما نفع قرنك ! من هنا ثورتها عليك ، فالثورة حب معكوس .عدم الاستسلام الاخير يبقي على الحب، يدعه توقا الى ما لا ينال .

– سؤال : « احسبتك فارساً وسيطاً » يحمي عذراءه من السوى ومن ذاتها ايضاً؟ (عدو الانسان في ذاته اولاً) . اتجهل ان قرنك ليس سيفاً للحراسة بل سكة للحراثة ؟ ما من حياة الا في التفجير ، في اختراق الحصون التي تظن ان من واجبك حمايتها . فموت العذراء حياة ، وحياة العذرة موت . انها سنة الطبيعة التي تعرفها المرأة كما تعرفها الارض الزرعة . والحياة دائماً الى امام، امومة تتجدد على الدهر . ولا تكون الامومة الا بالالم الذي يولد النشوة .

– سؤال ايضاً : « احسبتك فاسكاً وسيطاً » قوته في عزلته ؟ ليست البطولة في الهرب بل في مواجهة الصعب والتغلب عليه . لقد واجهت المرأة في فراشك « نعشها » ، واغرزت فيها اظافر العقل ، وحسبت انك نجوت من شبق الجسد لانها امك التي ليست لتضاجع ابنها . الا انك تجهل سلطان الجسد ، وسلطان المرأة !

– العشق في الاختلاف لا في الاتفاق .فالقضية تعشق النقيضة في سبيل التأليف (جدلية) . انت مجهول وامك معروفة لذلك عشقتك اسطورة غير معكوسة ، اي الها يخلص لا مسخاً يطلب الخلاص لنفسه . تباً لاله هو بحاجة الى سعفة البشر !(تكون الاسطورة عندما ترتفع الى مستوى النموذجية . والا فبطلها مسخ !)

– المعرفة هي بدء التحقيق : معرفة الخير والشر في التوراة هي بدء تحقيق السقطة . واننا كبار لا بما نعرف ونكتفي به، بل بما نجهل ونتوق الى معرفته . فامك اكبر منك ، هنا ، لانها تجهل ارتياحك ،وانت اصغر منها لانك تعرف اضطرابها (اليس الاضطراب اهم من الارتياح ؟) . والمرأة لا تفهم بل تحس . لقد جعلت فهمك ينقلب احساسا ،اي يتجسد ،فاذ بجسدك يفيق . واستفاقة الجسد هي ادخال في عداد القطيع البشري ذي القرنين : « وقام لقرنك قرن صغير مواز » . ثم فضحك لهاثك ! فالتعفف ، بحد نفسه ، موت لانه لا ينجب حياة . اما انجاب الحياة فانه موت للتعفف ، اي للتفرد .

– لهاثك فضحك رغم بسمتك المعارة . فقلبت امك الدور : لم تكن البادىء بل كانت البادئة ! واذا كانت الغلبة دائماً للجسد في صراعه مع الروح، فلنكن جسداً ، ولنكن غالبين ، بما ان الغالب والمغلوب يموتان . ولنتبع سنة الخالق في خلقه ، لان التفرد ، هنا ، هو سخرية وقهقهة بفم القدر :

بدلا من ان تكون انت الفاتح ، مريق الدماء ، ككل ذكر ، كانت هي الانثى الفاتحة التي تريق دماءك عند عتبة رحمهـــا ! ولخير لك لو ظفرت بعذراء ، فاقله كان لك عنفوان الشرقي المتزمت الذي يريق الدماء ! اما وانك جئت بعد ابيك فقد « انزاحت عن فم جب بغير قرار » .

– «لمن الطراد المستديم ... لها ؟ وللفاجعة .» فما كتب منذ البدء هو لا محالة واقع . والهرب خدعة بطولة . فكلنـــا الى المرأة نسير ، والى الفاجعة . وليست العذراء في الحقيقة سوى « شبه عذراء » (قد تكون عذراء بجسدها، اما بروحها فلا) . الاعذر ينتحل عذرته ، فالعذرة انتحال لا واقع . والقصيدة كالحياة : مهما « مطمطتها » فانها ستنتهي الى ما هي اليه . وهي اللا معرفة التي تجعلنا نداور ، فاذا عرفنا كانت نهايتنا الدامية (شجرة معرفة الخير والشر ، ثم المعرفة بمعناها التوراتي) .

– دمعة الام اثنتان: عليك وعليها .وقد تكون ايضاً دمعة الخداع النسوي. اما بسمتك فاجنبية ، لان الطبيعة لا تعرف سوى الدموع والفجوع . وكيف نشجب المرأة و «نرشقها بسنان ليس سنان المحبة » ؟ انها مسيرة لا مخيرة . انها سلاح الطبيعة لاستمرار النوع . وهي التي تغدق الحب في الموت والموت في الحب (الموت هو السقطة بمعناهـــا الميتافيزيقي ، وهو بالتالي عربون الفداء ، فبدونه لم يكن مسيح ليصلب) .

– كلنا شهيد وشهيدة ، مسيرون ، يقودنا الجنس . ومهما امعنا في الابتعاد فاننا سنتوقف يوما لدى الباب نفسه ، نفتحه او نكسر قفله . فتشهق المرأة وتكون شهقتها اقوى من شهقة الرجل لان حسها واحساسها اقوى ، ولانها سبب السقطة الاول ، وبالتالي الموت ، ولانها تعرف ان ملايين الحيوات العتيدة التي ستولد منها هي الى السقطة ، الى الموت .

– يكون الموت عندما نفقـــد الفذوذية والتفرد ، عندما ينبت لنا قرن ثان .موت رمزي كالحياة الرمزية . اما الاسطورة فلا تموت لان البشرية تحتاجهـــا فتبقي عليها . اترى المسيح اسطورة؟ اترى كانت اسطورته من حاجتنا اليها؟ ثم ان الاسطورة غالباً ما تنقلب عكس ما كانت عليه : كنت مثال العفـــاف ، فما ان مت حتى اصبحت مثال الخصب . انها ظاهرة الاعتياض . من هنا كان موتك مزدوجاً : موت عذرتك ، وموت حقيقة اسطورتك .

ما اسميناه تزويقات كان في الحقيقة تعليقات هامشية هيأت ان ترتفع الى ما في متن القصيدة . الا اننا نظنها ذات يد في مواكبة الجارف الشعري وانارته جانبياً . ولرب كلمة فتحت كهفاً تتكدس فيه الكنوز ! ثم اننـــا لن نستمر على ذلك في القصيدة الثانية ، رغم ما يلحف بنا من شوق ، لانه يطول بنا المجال اكثر مما تتسع له الصفحات القليلة المكرسة لباب المراجعات .

والقصيدة الثانية التي يحمل الكتاب عنوانها هي امتداد للاولى في اجوائها ومراميها . لوحاتها اربـع ، شديدة الحبك ، ترتد مآخيرها على اوائلها في تماسك عجيب . ويدخل فيها شخصان جديدان: الزوجة والابنة .

اما اللوحة الاولى فشأنها مزدوج: انها لادخال الشخوص جميعاً وتقديمهم منذ البداية كما سيؤولون اليه في النهاية، كأنما المأساة والملحمة تلتقيان ، مرة اخرى ، في تضاعيف هذا الكتاب . وانها لتخطيـــط الاطار الذي تستعر به نار المعركة ، معركة الانسان الممزق بين وجوده وماهيته ، بين السقطة والخلاص ، بين ما هو عليه وما هو اليه .

واما اللوحة الثانية فهي من نسج الذاكرة . بها تعاش المأساة مرتين . وهل للمنفي غير ذاكرته ترده الى مرابـع الطفولة ، الى وطنـــه الجغرافي (لا ننس ان الشاعر فلسطيني) ، الى العذرة التي كان ينشدها على ضفة البحر المقدس فيتصورها في فتاة احلامه « المتعذرة الوجود » ؟

قد تكون اللوحة الثالثة قمة هذه القصيدة . بها يحتدم العراك بين الجسد والروح في كر وفر متواترين . فنرى الشاعر يطارد عذراء ، ثم تخور قواه « بعيداً عن النبع ، قريرا باحضان العدم » ، كأنه جبل من الانفة والتعفف: «الى القمة الجرداء اختزلت نفسي » . على ان رؤى اللحم تلاحقه لان الهرب من الشيء هو هرب اليه ، وهو استعار اجوائه في الجسد وفي المخيلة ، حتى اننا قلما نقع في الادب العالمي بقطيبته على لوحة يرتفع فيها تصوير الشبق الى هذا المستوى من العنف . وما اشبه لندن بسدوم: « ولندن ... مرحاض كبير لا يرتوي». فغربة الشاعر فيها ليست عدم اكتراث بل عداء ، شأنه بذلك شأن الكركدن بالصيادين . وثمة ايضا صورة للشاعر فاجعة: « في الثلاثينات شبعان ايامي. شبعان ، تخمان، زحمان ايامي » . « شقائي اصيل هنائي مزور » .

ثم هي اللوحة الرابعة والاخيرة ، لوحة النور وراء الحجاب . انها صلاة ترتفع الى اله المؤمنين لا الى اله الفلاسفة . صلاة كلها اسئلة تلمع وتقطع كشفرة السيف في فجوعها الاصيل : « لم تأبى ان تكون ايامنا حتى الليلة الكبرى ايام تعارف وتحضير وبناء ؟» « لم تبعثر الاضواء الصغيرة ...؟» وكلها استغاثة بالذي يقهر « الملك الكالح » : « اعني . اعني » .

ملاحظاتنا التي بعثرناها بذارا حان لنا ان نجمعها اضاميم . وعوداً على بدء نستدرك الغواية التي نبهنا اليها ، وهي ان اثر الحالة الشعرية ، كما وسوس لنا الشيطان بطرف من ذلك ، هو ابطال لمفعول السائل الشعري : يبقى السائل وتتبخر الكحول . لقد لفت فاليري انتباهنا الى هذا المنكر بقوله : « اجمل ما في العالم من شعر ينقلب تافها لا ضابط له ساعة تتصدع حركته التناغمية ويفسد جوهره الجرسي ... انه آنئذ جثث للتشريح وطيور ميتة » . ولرب قائل ان شعر توفيق صايغ قد طاق الاوزان الخليلية وهجر القوافي فلم يبق اي سبب يشده الى الحركة التناغمية والجوهر الجرسي اللذين تحدث عنهما فاليري . قولة خاطئة ، لان هذه العروض الحرة الطليقة تنتظم في ابيات محكمة البناء ، على هدي من ذاتها لا من ذات التفعيلات المستعارة ، فتتداخل وتتشابك ويوقظ بعضها اصداء بعضها الاخر ، متجاوبة ، متعددة الاصوات ، بعيدة عن الوتيرة الواحدة التي عانى منها الشعر العربي ما عانى . وهي ، الى ذلك ، ليست للغناء على منصة او للتجديد على منبر بل للترتيل الجوقي الذي يخلق حالة للقصيدة قدراء . فلربما كانت حركة هذا الشعر الحر تغيب عن النظر ، الا انها دائمة الحضور في مجال السمع . ثم ان في هذا الشعر لجديداً ، وهو التفلت نهائياً من نطاق النمنمات والتوريات البديعية المكرورة . انه انفتاح على عرض البحر . كأنما الكون الارحب مجاله ، لا الجنينة الصغيرة المسيجة . فعبثاً تبحث فيه عن الورد والخيزران ومطافر الماء والعنادل !

هذا ، واما الارتياءات والتعليلات والتعليقات التي عمدنا اليها على هامش هذا الديوان ، فانها ليست من متنه بشيء ، لذلك لسنا نشقق من مغبتها في تحطيم الايقاع وتبخير الكحول وتعليب الايحاء . انها المواكبة لا للاستبدال . وعليه فامنيتنا الا يكتفي القارىء بهذا القدر اليسير بل يتناول « معلقة توفيق صايغ » ويفتح دفتيها الحارتين كما يفتح شفتي الجرح الطري . عندها فقط تتكشف له اجواؤها على حقيقتها : المأساتية الشاملة ، والدين ، والخطيئة ، والخلاص ، والحب الجنسي ، والمرأة ، والاسطارات .

اما المأساتية فانها تلف الديوان كله كأنها المصير. من هنا كانت حركتها تتقدم حيناً وتتأخر احياناً على غرار كل مصير فردي ، الا انها لا تتوقف كأنما هي في زمن ابدي . فما ابعدنا عن التشاؤم الذي طالما اخذه السطحيون على توفيق صايغ !

واما الدين فيقيننا انه ، بالنسبة لشاعرنا ، هو

الرد الوحيد الذي يمكننا ان نجبه به عدمية الزمن. اي ان هذه العدمية المطبقة التي ينفثهـا الشعر والرواية والمسرح والفلسفة وجلّ العلوم الانسانية في مختلف انحاء المعمور لا مناص منها الا اذا اوجدنا لنا منفذاً دينياً في تضاعيف عملية الخلق الشعري . وهـذا المنفذ مسيحي جوهرا لان سيكولوجية الاعماق التي يتمرس بهـا شاعرنا تشده ، في الآن نفسه ، الى الخالق والى الخليقة ، الى المسيح الذي يجمع بين الاله والانسان ، بين الاله الذي تأنس والانسان الذي تأله . لذلك كانت الخطيئة ، او السقطة ، او المعصية ، « حجاباً » بيننا وبين وجه المسيح من جهة ، وبيننا وبين اغيارنا من جهة ثانية . وكانت ايضاً جماعية ترمز المدينة اليها : لندن هنا كما هي سدوم في العهد القديم ؛ كأنه ما من خطيئة في الحالة الصرف ، في حالة الروح وحدها او الجسد وحده ، بل فيهما متحدين ، وفي الجماعة اكثر فاكثر .

وكانت الخطيئة ، اساساً ، في الفعل الجنسي ، في الشبق الفاغر فمه وفي لزاجـة اللحم . لذلك استقطب الديوان هذه النقطة ودار حولها وجمع الخلاص في التخلص منها ، لا بالتقشف والتنسك واعتزال العالم ، لا بالسعي الذاتي ، على اهميته ، حتى ولو كان وراءه عرق دم ، بل بسعفة الله وحده التي قد تجبونا الصلاة اياها . فما الخطيئة اذاً ؟ انها اتحاد الشبق بالموت (او بالحياة) كما تحققه المرأة في منطق كيانها . والشبق والحب عدوان متواطئان يتشابكان معاً في حالة الخطيئة المشتركة . فـلا غرو اذاً من ان نرى المرأة تهيمن على هذه « المعلقة » ، لانها الكائن الذي يؤلف في اعماقه بين الخطيئة والحب . ولا غرو ايضاً من ان يلاحقها توفيق صايغ بعناد واصرار محاولا ان يخلصها وان يجد الخلاص بها . لذلك لم تكن ابياته ، رغم ظهارتها ، تنديدا بالمرأة بل توكيداً عليها . والمرأة في هـذا الديوان هي نموذج شأنهـا لدى الكثيرين من الشعراء ، حتى اننا لنقول ان شاعرنا لا يلاحق المرأة التي يحبها ، بل المرأة التي يحب ان يحبها . ثم يتبادر الى ذهننا سؤال ثانوي نطرحه على عواهنه : أليس بين القصيدة والمرأة ما هو بـين الشعر والعذراء ؟ فالقصيدة لا تكون الا ساعة يتجسد الشعر بالكلمات ، كما ان المرأة لا تكون الا ساعة تبطل ان تكون عذراء . فهل العذراء « المتعذرة الوجود » هي رمز ؟

والرموز كثيرة في شعر توفيق صايغ . انها ترتفع (او تنخفض) الى مستوى الاسطارات . ذلك يعني انها تواكب وجودنا منذ فجر الوجود ، تهيمن علينا كما يهيمن الخوف على من يسير في الظلام رغم يقينه انه ليس من مدعاة للخوف . قال بيير ايمانويل : «الاسطارات صور رحمية » . فمن توصل اليها توصل الى الفكر في ينبوعه . وهي هي التي تجعلنا نتمرس فعلا بسيكولوجية الاعماق كما اسبقنا بالقول . أليس الكركدن ، مثلا ، اسطارا يرمز الى الرجولة بقرنه الوحيد ، والى المسيح بتفرده ؟ كأنما برجولته يطلب الحب الدافىء ، وبتفرده ينشد الحب المقدامي . ان بينه وبين الايل في الكتاب المقدس لشبها . والكتاب المقدس معين لا تنضب رموزه بالنسبة لشاعرنا : هنالك سيف نار الفردوس ، والحوت ، وشجرة المعرفة ، وسدوم « المدينة » .

امـا الملاحظة الاخيرة في هـذا الباب فهي ان توفيق صايغ قد عمد ، على ما نظن ، الى الاسطارات لا الى آلهة الاقدمين لان رمز الاسطار ابعد واشمل . فللآلهة هياكل تحدهم في المكان فلا تدعم على رحابة العراء ، وكهنة يضعون لهم غمامة حول الاعين موحدين نهجهم في الاستيعاء فلا يدعونهم على ثرائهم الاصيل .

رواد طوبيه